تل الزعتر بين الأمس واليوم
القسوة تولد الحياة

تل الزعتر ، الشوكة التي لم يستطع الانعزاليون الفاشيون قلعها من حلقهم ، ارادوه منطلقا لتغيير طبيعة الصراع الدائر في لبنان ودعمهم القصر الجمهوري مباشرة ، كانوا يأملون من وراء سياسة التجويع بترحيله لكن الفشل كان حليفهم وبقيت ارادة الجماهير هناك اقوى من ارادتهم ، حاولوا ابادتهم عسكريا على امل اعادة بحث الوجود الفلسطيني ككل على الساحة اللبنانية . لكن ارادة المقاومة كانت اجدر بالبقاء .

في حزيران ١٩٧٥ قامت حملة تطالب بتهجير « تل الزعتر » حركتها لجنة جامعة الكسليك التابعة للمؤتمر الدائم للرؤساء العامين للرهبانيات اللبنانية ، وكانت تلك الحملة تهدف الى الابقاء على جو الاقتتال الذي كان وما زال سائدا باعتبار ان ملكية الارض تعود ل « دير مار روكز » . وقد لعبت بعض الاوساط الرأسمالية الصناعية (بطرس خوري وجوزيف شادر) دورا من اجل تصوير ان الامر لا يتعدى استثمار الارض في انشاء مصانع ومعامل ، لكن الضغوط التي مورست من قبل الفاتيكان وبكركي قطعت الطريق امام الاباتي شربل قسيس وقطعت عربته المنجرة وراء « البغل » الكتائبي .

لن نتطرق هنا الى المكاسب التي كان الفاشيون يأملون تحقيقها من وراء عملهم هذا ، وان اصبح من الواضح ان السياسة التي ينتهجونها موجهة ضد الوجود الفلسطيني المادي والمعنوي والعلاقات الخاصة بين حركة المقاومة والحركة الوطنية وجماهيرها . ان المقصود من وراء هذا البحث هو اعطاء صورة عن طبيعة المعاناة التي يقاسيها الصابرون حتى يعجز الصبر عن الصبر .

فلماذا فازت قضية « تل الزعتر » الى واجهة الاحداث واصبح وجوده يشغل الفاشيين ويعتبرونه شوكة في درب مخططهم الجهنمي ؟

لمحة تاريخية :

في عام ١٩٤٨ قبل لاهاليه قبل ان ينزحوا كما قيل لكل ابناء شعبهم اخرجوا من فلسطين لمدة اسبوع ريثما نظهرها من الصهيونية . صدقوا القول وكانت المسافة في تلك الفترة تكاد تكون غير منظورة بالنسبة لهم ... وبعد ان قطع امل العودة ، ابحرت قافلة صغيرة من سكان الجليل بعد اقامة قصيرة في مناطق الجنوب باتجاه بيروت ، وكان نصيبها المبيت لليلة واحدة في جامع البسطة . ثم نقلوا الى فرن الشباك حيث اقاموا اربعة ايام . وبعد ذلك انتقلوا الى تكنة براس بيروت ثم الى منطقة جرداء لم يكن فيها سوى العقارب والثعالب والصواخ من التنك « الزنكو » .

والجدير بالذكر ان المخيم يقع في ضاحية بيروت الشمالية الشرقية يجاوره المكلس والدكوانة يحيط به سن الفيل والنبعة وبرج حمود والنهر والدورة ، الجديدة والبوشرية وعين سعادة ومار روكز والفنار.

تبلغ مساحة المخيم حسب مصادر وكالة الغوث الدولية ٧٥ دونما « الدونم يساوي ١٠٠٠ م٢ » لكن خريطة مديرية الاحصاء المركزي تذكر ان مساحته تقارب ٢٩٥ دونما . وعندما بدأ انشاء المخيم عام ١٩٥٠ كان عدد سكانه لا يتجاوز الاربعمائة نسمة ، وكان ذلك المكان معسكرا قديما لاحدى فرق الجيش الفرنسي . ومما يجدر ذكره ان الارض من ممتلكات دير روكز ، وضمن السياسة التي طرحتها السلطة منذ ذلك الحين ١٩٥١ والتي تقوم على اساس تجميع الفلسطينيين في مخيمات اساسية يقع معظمها في ضواحي المدن ، تم نقل عدد من المواطنين بلغ مجموعه ٧٧٨ نسمة الى المخيم ، ثم نقل اليه عدة مئات من فقراء عرب يافا وعرب الفوارنة وغيرهم من سكان مدن وقرى الجليل الاعلى . عام ١٩٥٥ بلغ عدد السكان حوالي ٣٠٠٠ نسمة حسب الاحصاءات .

ونتيجة لانتقال نسب كبيرة من سكان مناطق بيروت نفسها والمناطق الاخرى اخذ عدد السكان بالارتفاع حتى بلغ بين ١٩٥٥ ـ ١٩٦٥ ٥٠٠٠ نسمة وبهذا ارتفع عدد السكان للفترة ذاتها الى حوالي ١٠٠٠٠ نسمة ثم جاءت عملية الانتقال الفردي بحثا عن مجالات عمل افضل في العاصمة نتج عنه انتقال عائلات العاملين في المنطقة المحيطة بالمخيم توفيرا لنفقات المواصلات وتسهيلا لعملية الانتقال بين موقع العمل والسكن بحيث ارتفع عدد السكان الى ١٧٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٥ . وانا اضيف اليهم اللبنانيون من القرى الجنوبية المحتلة عام ١٩٤٨ فان عدد السكان يربو ٢٥٠٠٠ نسمة . كما ان المنطقة المحيطة بالمخيم مباشرة يقطنها اهالي الجنوب والبقاع الشرقي « الهرمل وبعلبك » ، وقد جاؤوا للبحث عن سبل افضل للعمل ولتامين موارد مادية توفر لهم الحد الادنى لمتطلبات الحياة . وبهم يزيد عدد سكان المنطقة الستين الفا .

الوضع الاجتماعي

١ ـ السكن

ـ نتيجة الوضع المادي الذي عانى منه الفلسطينيون في لبنان والمتسم بالفقر وعدم توفر مساعدات عينية لهم ، فقد عملت تلك الاسر على بناء غرف وتخاشيب معظمها من التنك أو من جدران الباطون المسقوفة بالواح التنك . ومما ساعد على استمرار تردي الوضع السكني لهم الاكتظاظ السكاني وطبيعة المساكن . وكانت الوكالة تقوم فقط بعملية الترميم في سائر المخيمات ، الا ان اعمالها هذه ترميم واعطاء زنكو وخشب الخ ، قد توقفت نهائيا منذ ظهور حركة المقاومة في لبنان عام ١٩٦٩ ، وقد ساهمت الحكومة اللبنانية في عدم تحسين الوضع السكني للفلسطينيين عن طريق عدم السماح لهم بالحصول على اجازات بناء او حتى ترميم المنازل القديمة على نفقتهم الخاصة . فبلغت الكثافة السكانية (حوالي) بين واحد وثمانية افراد للغرفة الواحدة التي لا يزيد طولها وعرضها على ٣ ـ ٤ امتار في حالاته القصوى .

الوضع الصحي

ان ضيق طرقات المخيم الداخلية (بحيث تنعدم في كثير منها امكانية مرور شخصين في آن واحد) ، ولكونها غير معبدة وتمتلىء بالحفر والاوحال والاوساخ وتلاصق الاقنية ومجارير المياه الآسنة المكشوفة جعلت من الصعوبة ايجاد مخيم يعاني من ظروف صحية تعيسة كظرف تل الزعتر . يساعد في ذلك تلوث اجواء المنطقة لوجود ٣٤٪ من معامل لبنان في نفس المنطقة المجاورة والملاصقة اضافة الى عدم توفر الحد الادنى من التجهيزات الاساسية الضرورية مثل عدد عمال التنظيفات لا يتجاوز ١٠ اشخاص . فالوكالة تحدد عاملا واحدا لكل ٥٠٠ شخص حسب « احصاءات الاعاشة » . كذلك لم توفر الوكالة عيادة مستقلة للمخيم اذ ان مخيم جسر الباشا كان يتقاسم العيادة نفسها ، والتي كان الطبيب يزورها مرتين فقط في الاسبوع ، حوالي ٥ ساعات مجموع الزيارتين وحيث قلما توفر فيه المضاد للالتهابات ، هذا اذا لم تكن رفوفه خالية حتى من الاسبرو « والدواء الاحمر » . كما ان العمليات الجراحية الباهظة التكاليف تمتنع الوكالة عن دفعها للمرضى وينعدم وجود المراكز الاجتماعية . كل ذلك ساعد على انتشار الاوبئة الناتجة عن سوء التغذية وعوارض الامراض التي يعانون منها والتي تتراوح بين حمى المصارين والاسهال المعوي للاطفال والدزنتريا والرمد اضافة الى الربو والامراض الموسمية .

الوضع التربوي

في ظل قساوة الظروف التي يعيشها سكان مخيم تل الزعتر الا ان اقبالهم على ارسال ابنائهم الى المدارس كان عاليا فقد بلغ عدد المسجلين المداومين في مدارس الانروا (وكالة الغوث) ٢١٪ بالنسبة لعدد سكان المخيم ثم ارتفعت هذه النسبة حتى وصلت الى ٢٧٪ عام ١٩٧٢ مقسمين على مدارس تفتقر الى العدد الكافي من المدرسين وغير مجهزة بالحد الادنى من الوسائل والاساليب العلمية الحديثة في التعليم ولا يكاد عدد الكتب والمقاعد والادوات القرطاسية يكفي للطلبة المسجلين . اضف الى ذلك سياسة التجهيل المتعمد التي كانت تتبعها الوكالة من خلال عدم وجود مراقبة او هيئات تفتيش للقيام بمهامها وتدني المستوى العلمي وضعف البرامج عدا نظام الترفيع الاوتوماتيكي الذي عمل به بعد عام ١٩٧٠ ثم تقليص عدد ساعات التدريس (نظام الفترة الواحدة) اضافة الى عدم تدريسها ولغاية ١٩٧٣ مادتي تاريخ وجغرافية فلسطين . رغم ذلك استطاع طلبة المخيم وشبابه تحصيل درجات علمية وادبية جيدة اذا اخذنا تلك الظروف بعين الاعتبار .

الوضع المادي

عندما انشىء المخيم عام ١٩٥٠ كان النشاط الزراعي مزدهرا بشكل نسبي في تلك المنطقة ، وبديهي ان يعمل القسم الاكبر منهم في ذلك الوقت بالزراعة وبعد انحسار هذا النشاط في منتصف الخمسينيات تحول غالبيتهم للعمل في ورش للبناء والمهن الحرة . وقد اتاح توظيف الرأسمال الصناعي اللبناني (٢٣٪ في تلك المنطقة) الى اعطاء العمال هناك فرصا عديدة للعمل نظرا لقدرة تلك المصانع الاستيعابية ، خاصة بعد تنوع اعمالها وانتاجها .

وقد شجع ارباب العمل لاستيعابهم هؤلاء العمال ان اماكن سكنهم قريبة بحيث يسهل تواجد العامل بشكل دائم ويمكن تشغيلهم ساعات اضافية اضافة الى الاجر المتدني التي كان على العامل الفلسطيني ان يقبلها ولو مكرها خلال الفترة من ١٩٥٥ الى ١٩٧٠ ، وعدا عن توفير رب العمل للتعويض الاجتماعي المفروض عليه دفعه للعامل في الحالات الطبيعية وذلك لان العامل الفلسطيني لا يملك اجازة عمل ، ولا يسمح له بالتسجيل لدى الضمان الاجتماعي . كل ذلك ساهم في ارهاق العمال ماديا وجسديا .

وقد عملت المراة والفتاة الفلسطينية ايضا الى جانب اخيها وزوجها وذلك لتغطية نفقات المعيشة اليومية ، اضافة الى الحالات المرضية والظروف القاهرة (كوفاة المعيل ، او عدم وجود معيل مساعد). وقد توزعت مناطق العمل على عدد من المصانع منتشرة بين الشياح والحدث وانتهاء بالدكوانة والمكلس وقد بلغ عدد العاملين والعاملات ٧٤٪ من عدد سكان المخيم .

اما بالنسبة للاجور فكانت تتراوح لغاية ١٩٧٠ بين ٢ ـ ٤ ليرات لبنانية يوميا للفتاة و ٦ ـ ١٠ ليرات للرجل ، وذلك قبل انتعاش النضال المطلبي للحركة الوطنية والتقدمية وجماهيرها مع بداية هذا